صرخة في الزحام القديم

قصة بقلم ادوار الخراط

ايقظه حفيف الاحلام والفجر المضطرب .

كانت الغرفة حاشدة الى جانبه . عارية تحت الملاءة الخفيفة ، أنفاسها ثقيلة . أحسّ نداوة العرق على ساقها بجانبه . وتخايلت له ضخامة فخذها الناعمة السمراء ، فابتسم .

وداهمته موجة الحب عالية ، ـ فجأة على غير انتظار ـ فانقلب على السرير ووضع ذراعه بحرص وحنو على كتفها . لم تتململ ، ولكن من يقول له انها لم تحسّ به ، وانها لم تعرف ، حتى في نومها ، في حركة أحشائها المعتمة ، هذا الوهج الدافىء الداكن فى قلبه من الرقة والقربى . استمرت أنفاسها تصعد وتهبط منتظمة ، شعرها ملتصق بجانب جبهتها الضيقة، وقميص نومها مفتوح وقد تزحزحت فتحته الواسعة على جانب من ثديها المسكوب . اقترب بوجهه تحت عنقها وتعرف مرة أخرى على رائحة نومها وحرافة جسدها الدسم . واندفع في جسمه حس لاسع من المحبة والتمزق والرضا في وقت معا .

لن تعرفي أبدا يا حبيبتي، في هذه اللحظة التي لم يشتبه عليك انها حدثت لنا ، كم كان حبي كاملا ، وموهوبا لك دون أن يقتطع منه شيء ودون أن يكون في صفوه أدنى أمل ، ولا مشاركة . خالصا لا أنانية فيه ، مطلقا لك أنت وحدك ، دون أن يكون جامحا . ومكتوما بلا حرج . ورأسه غير ملوث وغير جريح . لن تعرفي أبدا انني تركت نفسي تغمرني المياه الثقيلة ، مبتسما أو لما أكد أبتسم ، في هذا اليم من الحب القاتم الزرقة ، لا موج فيه ، وان الفجر عندئذ كان هذا البحر ، ضفافه هي أسوار العالم وأنا أغوص فيه ، سماؤه بلا قرار .

كشف عنها الغطاء الابيض المتفضن من ليلتها ، ونزل بوجهه من على المخدة ، ورمى بذراعها حول ردفيها ، وهو يثني ركبتيه قليلا حتى لا يسقط من طرف السرير . أراح عظام خده على صفحة فخذها العريضة ، خشونة ذقنه على طراوتها التي نزلت قليلا تحته وتماسكت . وجاءته أنفاس الجسم النائم المليء تمتزج به نفثات الفتنة المكتومة المغلقة ، لها طعم ثقيل .

في هذه الراحة قلق أجنبي عنها ، يأتي من اللحظة القادمة . من خطر لم يحل أوانه بعد ولم يتكون بعد ولكنه يحمل تهديدا ما . في البدايات الاولى من يومه انحسرت اللحظة الراهنة بالفعل وهو ما زال فيها . لم تأت اللحظة القادمة وهو لا يعرفها بعد . وعندما أسقط وجهه برفق على فرش لحمها الطيب الخصيب الذي يتلقاه الآن هينا ، مطواعا تحت صلابته ، سقط أيضا في حفرة بين زمانين كلاهما غير موجود . تردى في فراغ ليس فيه تحقق بينما هو يغرق في عجين الجسد الساكن .

لم تلحق به ، في نومها . لم تمد اليه يدا . لم ينقذه شيء . لم يجد ما يتعلق به في سقوطه ، حتى عندما استدارت اليه بين الوسن والصحوة ، تئن أنة واحدة خفيفة من الراحة وطيب الحس بأنه هناك ، وجهه عليها ، ، والتفت بذراعها حول رأسه تضغطه اليها ضغطة حنان ، وقالت : « صباح الخير يا حبيبي ، تعال عندي » . قال وفمه يكاد يكون مسدودا بحشوها الدمث : « أنا عندك يا حبيبتي ، أين أنا ؟ » . ثم استدرك : « صباح الخير » . ورفع وجهه من الحمأة العذبة المحتشدة وذراعها يشده الى حضنها شدة رقيقة . وهو يسقط فجأة وباحتدام على فمها المفتوح .

يا حبيبتي ، ما الذي يفصل بيننا ، مع ذلك ؟ ما الهوة الفاغرة بين جسدينا الملتصقين في عمق شهوة الفجر الاولى ؟ ما الغربة الضاربة في عظم العناق ؟ بينما صدرك مدفون مضغوط في حضني ، فخذاك ملتفتان بساقيّ ، عيناك تحت جفنيهما المدورين حجران لامعان لا يذوبان أبدا ، تسيل على صفوهما مياه الرغبة وطلب اللذة . أجسادنا أحجار ندية سخنة لا تندمج ، منفصلة حتى في تماسها الوثيق .

في مركز هذا الكون ، في القلب المنتفض الذي يميد ، في نقطة ما على المحور النابض الدفين ، هناك عين متيقظة أبدا ، موحشة ، متقدة بنار صلبة ، نداؤها لا تأتيه اجابة ، ليس الموت الذي يفصل بيننا ، انت لا تموتين أبدا . وليس الحب . أنت دائما تحبين ، وانت

ما أحب ــ اهي اللذة . سيف خبيث يقطر بالدم والمنيّ واللبن المتختر الرائحة . يقطع ما بيننا ؟ لسانك المملىء يلعق حده الباتر المحرق ، وصرختك المكتومة أنين من المتعة والتحقق والالم . لساني جمرة جافة تحترق . وتتقبض كالرق القديم ، وتسقط . فلا أجد الكلمة المحيية بعد أن أموت في طعنة المتعة . وجسمي كله تلفحه رياح مسمومة .

كانت رعشتها الاخيرة موجة تصل من بعيد . وترقرق قلبه أيضا ثم جمد . وابتسامتها غائبة وسعيدة ومكنفية . بين نوم وآخر .

عندما أستيقظ من ميتته الصغيرة كانت النافذه فتحة منقوبة في السماء . محجوزة بستارتها البيضاء المتهدلة قليلا . عن الهواء الذي يحسه في الخارج باردا ومعاديا . ومن وراء الزجاج الفاصل كانت السقوف المنحدرة في خطوط حجرية حادة الزوايا ، قديمة ومسودة من الدخان ، ومتجمدة . تطل على فناء عار . وجهها الاسمر المدور هو وحده الذي يبدو من الملاءة التي تلفها . مرتاح وقانع في نور الصبح الضعيف المثقل برائحة شهوات قديمة منقضية .

كانت عظام جسمه خفيفة وهو يطوّح بنفسه يتب من على السرير . عندما نظر الى الفناء المربع الضيق الغائر بين الحيطان المسدودة كانت أحجار الارضية الرمادية مكسورة ونظيفة كالرخام . بين شقوقها تراب أسود متحجر . لم ينبت فيه اخضرار ، كان خاليا تماما . وبجانب الجدران الحجرية الصم ، من غير طلاء . صفائح مستديرة ضخمة سوداء مغلقة بأغطيتها المقببة المبلولة بندى الصباح ، مرصوصة بانتظام . الشجرة الوحيدة تنبثق من الحجر بخشبها النحيل القوي اللافح القتامة ، معوجة محنية ولكن لا تنكسر . تحملت كم شتاء من الوحدة وتصدت لكم عاصفة ؟ وتلوت أمام صدمات الرياح . ولكن لم تنكسر . أحسّ أيضا في داخله مشقة الخشب وتشققه .

قال لها وهما يستعدان للنزول :

ــ كل ورقة . على كل غصن ، بشرايينها البيضاء الباهتة الدقيقة في اللحم الاخضر الرقيق ، أليست معجزة ؟ هذه الكثافة المشغولة بدانتللا رقيقة الجسم . الملتفة حول جذوع ناعمة العضلات ، هذه الخضرة الموسيقية بظلال لا نهاية لها . مطفأة ويانعة وخافتة . هامسة وساطعة وغضة ، وداكنة وقديمة ومرتجفة ، أليست معجزة ؟ والطيور الهشة الصغيرة تتطاير في رحاب هذا الفنى الخطر ، شهبا حية في مجرّات أفلاك سوداء شاسعة ، أليست معجزة ؟ مئات ، آلاف . ما لا حصر له من المعجزات ، يتكرر باهمال ، دون عناء . حوالينا ، دون أدنى ضجيج . ما أشد كرم هذا . ما أكثر سرفه . هذا الاغراق . بلا مبالاة . في المعجزة التي تحدث بلا انقطاع . الاعجاز هو هذا الذي لا وصف له ، نسيج اليوم والليل الصامتين أبدا ، بلا انقطاع .

قالت : هذا ما أجده كل يوم في الصبح عندما أفتح نافذتي . أنا ايضا أحب الشجر ، كما تعرف .

أدرك أن في تعجبه شيئا من السذاجة ودهشة ابن الازقة والحواري المحرومة من الخضرة ، وأيضا روع المأخوذ بشروة فادحة . ولكنها دائما في متناول اليدين . ولا تطال مهما غرف ملء الراحتين والعينين ، مهما ضم عليها الدراعين والساقين في شبق يتجدد دون توقف ، وتظل النروة كاملة لا تمس ، تنبض بصمت في ازدياد جسدها الذي ينمو ويتدفق ويسيل على الجانبين . أما في نبرتها فتفة بأن العالم معطى والحياة مسلم بها ، ميراثها وملكها . مأخوذة مأخذ الشيء المفترض أصلا ، ولا اهتمام به .

قال لنفسه : متى تنتهي من تفلسفك هذا الذي لا يساوي مليمين ؟

كانت تنظر اليه بعينين صافيتين . بحيرتان ما مدى عمقهما ؟ القاع تحت السطح مباشرة لا تكاد تمسه القدمان ؟ أم غور بلا قرار ؟ رمال صحرائه الداخلية فاحلة تحت شمس العيون الصخرية اللامعة القسوة .

لا تكن قساة يا رامة ، على أحدنا الآخر أقصد . ألا ترين ان العالم كله من حولنا يطفح بالقسوة ، بمبرر أو من غير مبرر . سواء ؟ والجدران والناس التي لفحها لهيب الشهوات والاخفاق وضربتها الرياح واللامبالاة ، جافة . محروقة . نحن أيضا نستطيع أن نكون ــ أقصد اننا أيضا بالفعل ــ قساة . هذه القسوة درع هشة وان كانت مروعة الشكل ، أنيابها زرق مشعثة وفمها فاغر غائر الشدقين ، عيناها لا تطرفان . ألم نتعلم كيف نصمد للقسوة الا بالقسوة ، ودعينا على الاقل لا نقسو أحدنا على الآخر . اذا استطعنا ، كلما استطعنا . لان ضرباتنا موجعة . تقع على مقتل . وقد عرفنا ــ أليس كذلك ؟ ــ أين منا مواضع الجراح القاتلة. مهما أخفيناها تظل مفتوحة نازفة تهضب أحيانا بالدم السخن وتظل دائما تنضح بقطرات منه قاتمة لا تجف ولا ينقطع نزّها .

قال لنفسه : نسيج حياتنا نفسه هو هذه الميتات الصغيرة . متعاقبة بل منصلة مستمرة كلّ يوم ، كل لحظة . ها نحن نموت اذن اذ نبعث الحياة في كل نفس.

قال لنفسه : متى تنتهي من فلسفة المليمين هذه ؟

قال لنفسه : أنت تأخذ صوتها لنفسك مرة أخرى. هذا أيضا من خطوط دفاعك القديمة . متى تتعلم أن تقف وحدك ، كافيا لنفسك ، من غير تبرير ، من غير حاجة الى هجوم ولا دفاع ؟

الدفاع عن الشيء الصغير النـــاعم الحي الهش النابض بخوف وتهور وعناد معا ، القطعة الوحيدة مـن الجسد التي لو أصيبت لتحول جسم العالم كله الى جثة يصعد نتنها الى عنان الافلاك الشاسعة ، ويزخمها .

قال لها : كان هناك الكثير جدا في الميزان . بل كل شيء . قامرت بكل شيء . كان الرهان عاليا جدا ، على كل شيء .

وهما يقبلان معا على أنوار المولد وزحامه وضجيجه ـ يمسك بذراعها فتتركها له ، لحظة ثم تتعثر في حفره على الرصيف وتتماسك وتعتدل وتسبقه خطوة .

ولكني خسرت ، خسرت حتى قبل أن تبدأ اللعبة. لم تكـــن لعبتي . رميت بكل شيء . كـل شيء ، في الميزان . وخسرت . كان لا بد أن أخسر ، ليس هنـاك من يراهن بكل شيء ويكسب .

بل لا يوجد هنا مكان للمكسب أو الخسارة ، فان اللعبة لا تدور ، أصلا . وتصبح المقامرة كلها خـــارج الحلبة ، في الظلام ، غير مرئية وغير مفهومة .

جانب وجهها . بين أمواج الناس الكثيفة ، منارة ملساء الجانب ، مدورة هادئة ، وهما يتركان ، في هذا الدفء من الاجسام والاحجار ، مخازن الخشب الواسعة الضخمة الابواب ، وكاراجات السيارات تعلوها اعلانات توكيـــلات فورد وشيفروليه ونصر بالحروف الانكليزية والعربية العريضة المحدودة ، وسور الاسطبل الخديوي الحجري الطويل وعلى بابه رأس حصان منحوت مـــن الحجر ، والشرفة الرقيقة الاعمدة بخشبها المشغـــول تطلّ على رخام فترينات الكبدة والكباب عليهـا أكـوام حمراء قاتمة متهدلة من اللحم المقطوع ، ودكاكين الفسيخ والسمك فيها الصفائح اللامعة المليئة ترتفع في أعمـده مرصوصة .

كل شيء هنا والآن موضع السؤال . ليس الحب فقط بل وجودي نفسه ، ومشروعيتي كانسان ، كرجل. الحقيقة والخداع . الامانة والخيانة . كل شيء . الحرية والقهر الانساني والالهي معا . أنت معي الآن ، لا تنظرين اليّ ، كأنك لست معي . ولكنك هنا ـ كالكون كله ـ فيك حقا قبس من كيان متعد متسام الهي . هناك بيننا حكاية كونية ، الهية .

وهما يزاحمان الناس ويمران بين عربات الترمس بقراطيسها المصنوعة مـــن ورق كراريس التلاميـــذ وشعلاتها الصفراء التي لا تكاد نارها ترى تحت الانوار الساطعة الساقطة من الجامع القديم الا من دخانها الذي يتشتت في ذؤابات مستدقة متطايرة ووميض الكلوبات بنوره القوي الثابت على أكوام الحمص الاصفر والابيض الملبّس بالحلوى المتشققة وعرانيس المولد الحمراء قليلة وأوراقها المفضضة متكسرة قليلا وأصفاط حب العزيز الصغيرة المسحوبة المزوقة .

قال لنفسه : توهم . دون أن تشفى . ان هـذه الحكاية بينك وبينها شيء صوفيّ . ألا تخلص من هذا الهوس ؟ انت معها هنا ، بفتنتها وقبحها ، أليست امرأة يا أخي . شيء آخر في هذا الغمر الذي لا ينتهي مـن الناس . عظيمة كانسانوامرأة ، ومسكينة أيضا . شقية وطموح ، مرحة ولها أسرارها الصغيرة والكبيرة ـ ككل الناس أليس كذلك ؟ ـ لها عيوب جسمها وجاذبيته التي لا تقاوم . نعم . أحبهـــا الكثيرون وأحبت الكثيرين ، وماذا في ذلك ؟ أخطأت وضحت وتعبت وأدت وأجباتها وأكثر . وأوت أيضا الى أحضان عشاقها ، لم تعن كثيرا بمصطلحات خلقية واجتماعية ولكنها راعتها دائما فـي ذكاء وانتباه ، رحمتها وشهوتها ، تسع كل شيء . أنت لا تعرف على كل حال ، الا أنها ، معك . امرأة تعرف كيف تتمتع وتمتعك . وأنت تحبها . فليكن ، ألا تستطيع ان تقبل ذلك على حدوده ؟

المئذنة الضامرة السامقة ، نحيلة ورشيقة ومعزولة وحدها مع السماء تتدلى منها سلاسل الانوار الكهربيـه الملونة ، تقط من الحلوى الكثيرة الكثيفة الضوء ، تهتز بلا تلاصق على الاحجار الالفية التي تعرى لحمها القديم تحت الخطوط العريضة الافقية البيضاء المغبرة والباهتة الحمرة .

وهي تسير بثقة الى جانبه ولكنهـا ليست معه ، كانها ولد ، ولكن برشاقة أنثوية من نوع جريء ومتمكن، بحذائها المنخفض غالي الثمن الذي بهت جلده من التراب وتخشن . وجيبتها الواسعة عـــلى جسمها المستحكم الاركان ، وبلوزتها المفتوحة الممتلئة بصدرها وقد تندى بعرق خفيف يلمع في الليل المنير . لا يكاد ينظر اليهـا الناس في الزحام ، وهي غائبـــة عنه ، احسها قـــد انسحبت مرة اخرى عنه الى عالمها الخاص .

القبة العريقة يعلوها هـــلال صغير يبدو كأنـــه صدىء . في الاشعاع القوي الذي يأتي من تحت عـلى جلد السماء الباهت الزرقة . العتبات المباركـة تحت الباب الضيق العميق تضيئها القناديل الكهربية وتفضي الى سلام داخلي يبدو بعيدا ومنفصلا .

كان حسه جامدا في هـذا البذخ الحسي الغليظ الحواف . كانت وحيدة الى جانبه وسعيدة . مليئـــة بالطاقة بعد ساعات الخمول والركود التي لم تكد تبـدو لها نهاية . نشطة متوفرة بالضيق والاندفاع . مرتبطـة بالكثير والكثيرين ومنعزلة متفردة . صنعت أشيـــاء مجيدة مجهولة لا يدري بها أحد ولم تفعـــل شيئا فـي النهاية مما تريد حقا أن تفعل .

من الناحية الاخرى شرفات البيوت الخشبيـــة المشغولة على طراز المشربيات ، ولافتـــة ضخمة باسم الاتحاد الاشتراكي العربي وأبواب مـــن الحديد الرقيق دائرية النقوش أحجارها الجديدة المقرنصة في تقليـــد

بارع للطراز القديم تغطيها طبقة من تراب دسم باهت الفتامة وكراسي أنبار الافرنجي المطل على النيل ما زال فيه عزّ العشرينات . والاعلانات على المرايا المصنوعة من الزجاج البلجيكي تآكلت أطراف زئبقها الفضي. والشارع الفسيح اصطفت في وسطه عربات الفاكهة والخضار والعيش البلدي والشامي والمحمص بارغفته الصغيرة الهشة المحموشة بالسمسم ، والفجل والخص الطري والكرّات المتهدل الشواشي . يغص ويفيض بالجلاليب والقباقيب والملايات والبنطلونات والعمم الصعيدي والكلاكسات وانوار النيون وطشيش الزيت ورائحة السمك المقلي النفاذة الثقيلة في هواء الليل .

افترب منها واخذ بذراعها الغضة مرة اخرى . كم من أشواقك احبطت يا رامة ، وكم من سعادات تحققت لك . انت محدودة ومحددة ولانهائية . دائبة البحث عن كمال ما ، مفقود . وكأنك خالدة لا تموتين . الرقه والروع معا في قلبه المهتز . لكن الحب فيه قاطع الحدود ليس فيه حليط متميع السوائل . بل حاد له نتوءات تجرح وتحز في اللحم الحي خطوطها الغائرة .

كانت سيارتها الصغيرة المعتمة تشق الآن طريق النيل في أول ليل القاهرة ، تحت أنوار كوبري امبابة . وكانت فيها رائحة مقلقة لحواسه ، مزيج من رائحة الجلد والصفيح ولزوجة لبن قديم وحرارة احتراق البنزين .

كانت قد بكت . وهي تقود السيارة. بدموع متدفقة سهلة وصامتة ، وكان يحسّ احباطا عميقا وجارحا ولا يعرف بالضبط مرجعه . وكان جامدا ينظر الى دموعها بعينين صاحيتين ويقول لنفسه : ما الذي يوجعها ؟ ماذا يمكن أن يعزيها ؟

كانت قد قالت : لا يحدث لي أبدا شيء مفرح .

وكان يقول لنفسه ، في قسوة : ماذا تريد ؟ هل هي تريد الرجل ؟ الرجل أيا كان الرجل ؟ أم تريدني انا ؟ ولماذا هذا العكوف الآن على نفسي ؟ هل يجب أن تظل دائما منفصلا مغلق الحدود ؟ ألا يمكن أن تندمج ، انت ، في هذا التيار العريض المتدفق بالدماء والمنيّ والمياه الطينية ؟ وتذوب فيه ، وتعبّ فيه متعتك ، غفلا مجهول الاسم مفقود الهوية ؟ كأنها ، هي ، تريد أن تغرق — كما تريد كل ليلة — في أمواج هذا النهر الذي لا تنتهي ، سوداء خصيبة ، طين جسدها نهبا مستباحا، لتصحو مغتسلة ومشرقة ، اللوتس اليانعة بسمرتها المصفرة المتوهجة منبثقة عن الطين من بين فخذي حابي القديم الذي ليس له ضفاف يأتي من بحر العالم السفلي ويصب فيه بلا انتهاء . أما أنت الآن فجزيرة رملية صلبة القوام .

قالت له فجأة . وقد توقفت العربة في ميدان ساحل روض الفرج ، وعلى البعد عربة تين شوكي يئزّ فوقها المصباح الغازي بشعلته الوحشية ، في غيامه متقطعة الذيول من بعوض الليل الصغير المتطاير . والبائع بجلابيته الطويلة قامة غامضة في الظل ، وصندوق الكوكا كولا وقد بهت لونه الاحمر وتساقط طلاؤه وامحت الحروف العربية والانكليزية من على صفيحه المرصوص ، وسيارات تاكسي واقفة على رصيف الكورنيش تحت الشجر ، قديمة الزرقة ، منخفضة السقوف ، جعارين نائمة متربة ، والشارع يصب الى خرابات مكشوفة لا تكاد تتبين فيها الحفر بين أكوام الطوب والحجارة ، والمقاهي ساطعة خالية ، خطوط لافناتها كبيرة ملونة منعرجة . والقرآن ينطلق منها بقوة ، في تلاوة راسخة ، وبيوت متطامنة خفيفة وضيقة ، وعسكري المرور أسود وصغير على البعد ، يقف كأنه تائه في وسط الميدان ، قالت له فجأة : ميخائيل ، اذا طلبت منك فهل تترك كل شيء وتأتي معي ؟

كانت عيناها مجنونتين . أما هي — بعد البكاء — فهادئة ساكنة لا حراك بها ، صافية الوجنتين في ضوء مصابيح الشارع المتقطر من خلال ضبابة غبار دقيق لا يرى .

كانت يداها المكتنزتان مرميتين على فخذيها بلا حياء على الجيب القصيرة الزرقاء العاتمة القديمة اللون . كل شيء يتقد في نقطة حميمة داخلية ، مدفونة عميقا بعناية في هذا الجسد الذي يبدو مفتوحا ومكتوما.

قال : اذا طلبت ذلك مني حقا ، نعم .

كان صوته سريعا ، لا تفكير فيه ، متهدج الاطراف.

لم يقل نعم مطلقة من غير شروط بسيطة فورية مباشرة . لانها لم تقل له : أترك كل شيء وتعال معي . مطلقة ، بكل اليقين ، بكل اليأس . لم يقل لها : نعم ، نعم الآن وفي أية لحظة . لم يقل لها حتى : نعم عندما تطلبين مني ، في اللحظة التي تطلبين مني . كان يعرف ان السؤال معلق بأشياء كثيرة ، بل كان يعرف ان السؤال لا يتعلق به ، هو ، لا يقصد به أن يترك كل شيء ويذهب معها ، كان يعرف انها تطلب شيئا آخر ، عرضيا ووقتيا زائلا ، انها كانت ، بهذا السؤال الذي يضرب الصميم ، تطلب منه ليلة فقط ربما ، أو بعض ليلة ، لغاية الصباح ، وانها تلعب بالمستحيل ، وتقامر بالضروري ضرورة الحياة والموت نفسها .

قالت : نعم ، افترض انك تحبني ، بطريقة ما .

فلم يقل لها : بل أنت ، أنت التي تحبينني بطريقة ما . أم هذا يوازي قولك : « أنا لا أحبك » ، لا أدري لن يكون ما بيننا حكاية . فما هذا ؟ ما هذا الذي بيننا الزلزال الاعصار السماء الساقطة . أما أنا فأحبك. من غير حدود . من غير تحديد ، من غير تحفظ ، حبا

كاملا يريدك كلك كاملة . الكمـــال ايضا مستحيل . والاستحالة كاملة .

قالت له : لقد كنت ، معك ، نفسي . معك وحدك حاولت بقدر ما وسعني ، بكل ما وسعني ، أن أكـــون نفسي . صادقة الى آخر ما أعرف الصدق . بمزاجي المتقلب . بشرودي وسرحاني اذا شئت . حزينة أحيانا وبعيدة ، مرحة بالطبع اذا جاءني المزاج ومملوءة حيوية واقبالا . أليس كذلك ؟ لكنك تقـــول انني لا أحبك . لا أعرف ماذا تريد أن تقول .

بعد البكاء كان وجهها صحوا ، ناعما . عاد قناعا . من جديد .

قال لها : أنت غير عاطفية بالمرة .

كان مريرا .

لم يقل لها : هـــل معنى هذا انك لا تعرفـــين ما العاطفة ؟

لم أرك عاطفيه أبدا ، وتعصف بك العواطف . الا عندما كنت تقولين ــ نادرا ما كنت تقولين ــ عـن ذات نفسك الخبيئة وتدافعين عنها . يا ذات الاقنعة .

قال لها أيضا : أنت صارمة ، ولا تعرفين الهوادة . نظرتك الاكلينيكية الصامتة المتفكرة التي تحسب حساب أشياء كثيرة . وتتخذ القرارات ، وحدها ، لذتك الخاصة في النشخيص والمعرفة والتماسك . لحظة تم تنصرفين ، دون اهتمام الا بأشباع حافز قاس محـــايد نحو القبض ثم الراحة . خوفا من رعب المشاركة وعقابيل المشاطرة في التجربة ، حرصا دون التخلي عـــن ذات نفسك . أنت تتخلين عن ذات جسدك ، عن طواعية ، نعم . تتركين هذا الجسد ، عنـــدما تريدين ، كأنما بالرغم منك . مستباحا بلا أســـوار ولا حيطة ، حتى تحتفظي بنفسك دون خدش ، دون مساس .

قالت له : ما هذا ؟ هل نحن نجري الآن تشريحا على الجثة بعد الموت ؟ ليست أمامنا بعد ، فيما آمل ، جثة . هذه العلاقة بيننا ، لم نضعها على رخام المشرحة بعد . ما زال بيننا شيء حي ، فيما أرجـو . ما زلت أعرف كيف أكون صديقة حقـا ، صدقني أعرف كيف أكون صديقة ، وأعتز جدا بالصداقة .

ستقول له ، فيما بعد : ان ما بيننا ، ربما ، كان صداقة غرامية .

قال هازئا ، بصوت مكتـــوم : لا أريد صداقة . لا أريدك صديقة .

وفيما بعد كان يردد لنفسه اجابته ، لم ينزل عنها أبدا ، لم يكن يريد هـــذه الصداقة . بل شيئا آخر واكبر الى ما لا نهاية . ويقول لنفسه : أنت طموح جدا ، وصفر اليدين . أليس كذلك ؟ وكانت دموعه صعبة جدا كانها تسقط واحده بعد الاخرى . ثقيلة ، وتأخذ معهـا شيئا من ضلع الجـــدار الداخلي للقلب . مـــع تقدم السنوات تصبح الدموع جافة وصلبة ، ويصبح العذاب صخريا . بدلا من عواصف الشبـــاب التي تهز وتدوم وتهمي بمياه الالم . يصبح الالم حجـــارة لا تذوب ولا تتفتت . فاذا تكسرت تحت وطء القسوة كـانت شظايا مثلومة غير حادة . كاتمة وضاغطة لا تنزاح .

كان يعرف انهـــا سوف تستخدم كل شيء في سبيل الحصول على ما تريد . كل شيء : الافكار اللامعة المصقولة التي تعرف كيف تلعب بها وتقلبها على وجوهها . القيم الجديدة أو التقاليد العريقة على السواء ، تسيرها وتحرك كوامنها وتزيح الغطاء عـــن شحناتها . سوف تعرف كيف تترجى وتتوسل وتبكي وتداعب أرصـــده الغرور وتهدهد المخاوف وتستنفر النعرات وتربت على تورمات الكبرياء السهلة والزهو بالذات . سوف تستكين وتتطامن ، أو تتنمر وتتحرش . كل شيء تفعل ، تطوع . من جسدها وعقلها وتركيبتها الغنية المليئة ، مادة حية متدفقة تهجم عليك . وتحاصرك من كل جانب . ولكن بأمانة مطلقة . ليس عندها من ســـلاح الا هي : أنت وهي فقط . العلاقة بينكما فقط ــ علاقة تلخص العالم كله حقا ولكن لا تتجاوز نفسها اليه ولا تستمد منه زادا خارجيا . هي . جسمها وروحها ، رحمها وذكاؤها . هي كلها . ولكن وحدها . هي نفسها أداتها وسلاحها . وأنت . مهما كانت الطرائق والاساليب فهي كل الامانة وكل الصدق . الامر كله بينك وبينها . فقط لا شأن به لأحد او لشيء في خارج هذا الذي يدور بينكما . أنتما فقط . هنا تفردها وصدقها الفذ . أنتما وحدكما تقرران ماذا تريدان بهذه المادة المطواع القوية القوام التي تلتصق بكل منكما . تلتف به وتفريه وتطبق عليه الخناق فـي حصارها الناعم الذي لا يطاق .

قالت له : لا معنى أن تبقى معي في الغرفة . أنـا انتظر التليفون . يمكنك أن تخرج . ألا تريـــد أن ترى المتحف ، أو تمر على الدكاكين ؟ لا تشتر شيئا يا أخي اذا كنت لا تريد . تفرج عـــلى الواجهات . صحيح ، لا أريدك أن تحبس نفسك معي .

قال : ايي ؟ هل هذا ممكن ؟ لا ، سأبقى معك .

قالت بضيق وهي ترمقه بنظرة سريعـة حاسبة : أبدا . لا أريدك أن تضيق بي وبنفسك ، في هذه الغرفة المقفـلة .

قال : يا ستي لكن أنا أريد . اريد أن أضيق بك وبنفسي ، ما دمت معك .

كان الحبس في الغرفة كثيفا وغائما ، لا تقطعـه الا النافذة ، كجرح لا ينـــدمل . كأن وجودها معـه ــ لحمها وجسدها وتوترها وقميص نومها الذي عليـه

جيب قديمة واسعة حائلة اللون ـ يملأ الحبس بعجين حاشد القوام لا يكاد يلتقط فيه أنفاسه .

قالت له . بعد ذلك : سأخرج قليلا . عندي ميعاد .

قال : من ؟

قالت : أنت نعرف ، قلت لك .

كانت قد حكت له عن صداقتها مع رئيس الوزراء السوداني السابق . العجوز طيب القلب حاد الذكاء واسع المعرفة . ما زال يحتفظ ببقية وسامة قديمة عربية زنجية ، نفى نفسه خارج السودان للعلاج والسياسة معا . قالت له : هذا الرجل شهد مولد كل أطفالنا ، في العائلة . كانت أول هدايا يحملها الى مصر في زيارته هي هداياهم . كانت سهراته في بيتنا هي الوقت الوحيد الذي يعرف كيف يستمتع به .

كان الرجل قد جاء منذ يومين وسلم على ميخائيل بيد باردة راحتها باهتة اللون ، وعين باردة عاقلة النظرة فيها حدة مكتومة قديمة ، وشهدوا معا مباراة تنس في التليفزيون في الردهة الخاوية المعتمة التي تتناثر فيها مقاعد مشققة الجلد ، موحشة ، غير مستعملة . وتحدث الرجل . بحذق الديبلوماسي الاديب العريق العجوز الملول . عن ضربات التنس وضربات القدر . ودخل في تفاصيل تكنيكية طويلة عن لعبة التنس ولعبة السياسة . رهي تبادله براعة الحديث ببراعة ، وميخائيل لا ينتهي عجبه من صنعتها في الحديث عن موضوع لا تعرف فيه شيئا كثيرا ولكنها تلتقط أطرافه من محدثها نفسه ، بيد مدربة سريعة ، بذهن رشيق الخطى خفيف الحركة. ودائما يسيل الجنس من كل مسام جسدها وعقلها ويفيض من عينيها . ماذا بينها وبين هؤلاء الشيوخ ، هذه الحطام الباقية من أجسام وعقول كانت فتية وباهرة وتركت بصمات أقدامها على أحجار التاريخ ؟ وهي دائما هناك ، في الظل ولكن مؤثرة . حنانها الجنسي اللين الناعم يغلف هذه الركام الحادة الجافة الجسيمة المائلة بعد عزّ رجولي قديم .

كانت قد قالت له : يا روحي على دون كيشوت . أحبه ، أحب كل شيء فيه .

الشيخ الذي لا يريد أن يسقط رمحا تركه في يده عصر غابر .

تجمع صوره وتماثيله الخشبية والحديدية والشارات المعدنية البيضاء المنقوشة عليها ملامحه الحادة . وتجمع أيضا تجسداته . سأل نفسه قلقا : هل أحارب أنا أيضا طواحين الهواء ؟ نعم ، العدل مستحيل ، الحب مستحيل . فهل يمكن أن أقبل ؟ هل يمكن أن أسلّم ؟

وعندما عادت طرقت عليه الباب فجأة . على غير انتظار . جاءت مبكرة ، وكان في أعقاب نوم الظهر القصير المضطرب ، كان يتحدث في نصف النوم الى ناس الحلم ، لا يعرف من هم ، ولكنه يعرفهم . وقام بسرعة على طرق الباب ، يفتح ، نصف عار لا يدري تماما أين الباب وهو يفتحه . قالت له ، بنظرة صلبة سريعة : ماذا ؟ هل تقوم باستعراض ستريبتيز أم ماذا ؟

كانت قد قالت : ماذا تظن ؟ هل تظن انه سوف تكون لي معك علاقة غرامية ؟ وانني سأكون عشيقتك ؟ هذا مثير للسخرية . لست عشيقتك . لن أكون عشيقتك . لن تكون بيننا علاقة غرامية . هناك بلا شك صيغة اخرى ، نعم نحن صديقان ، هذا كل شيء . علينا أن نجد هذه الصيغة . صداقة غرامية ، ربما ..

قالت : الى اين سيفضي بنا كل ذلك ؟ الى لا شيء ، ربما .

كان صمته ، عندئذ ، خيانة اخرى .

هل انا مجرد رقم في اقتصاديات حسيتك ، يا رامة المحبوبة البعيدة ، معادلة موضوعة بين قوسين في حسابات شهواتك وتطلبات جسمك الملحة ؟ لا ، لست أنا حاصل العملية الحسابية . لن يكون لها ابدا حل ضروري ومحتوم .

فليكن . أليست هبتك لنفسك ، لجسمك المبذول ، حتى في داخل رياضيات الحس المعقدة ، عطية لا تعوض ولا يقارن بها شيء ؟ لماذا تقف مكتوف اليدين أمام العملية ؟ كانت رائعة في بذلها . نعم ، هو مبذول ايضا ، هذا الجسد الطيع المفتوح ، لآخرين ، للآخرين ، مبذول كلما أتى الليل ، تغمره وتعمده ذكورة العالم في نهرها العريض الجاري المتغير الامواج .

كان رفضه صبيانيا ، في نهاية الامر . كان وما زال يطلب المتفرد والمطلق والوحيد . ليس هذا هنا ، على ساحل هذا العالم الذي تشرق الشمس فيه وتغيب . لا لواحد ولا للكل ، لا لشيء ولا لأحد . الشمس ليست قرصا محرقا منحوتا بلا حول في حجر السماء . والليل الاسود يرين وينجاب عن هذا الغمر المجهول أبدا من وحدات لا عداد لها بلا نهاية ولا تميز .

كانت السيارة قد غرقت ، لا تكاد تتحرك ، في سيل ميكانيكي بشري ينحدر ببطء في شارع فؤاد ، دخان العادم وصرخات الابواق المتقطعة والملحاح ، أوكسيد الكربون والشتائم المكتومة من وراء الزجاج ، صفارة سيارة النجدة البيك آب المحملة بالجنود متصلة، لا تكاد تتوقف ، ولا تعرف مع ذلك كيف تشق طريقها في كتلة المرور المتراصة الزاحفة ببطء ، ولا تصمت . قال لها : ماذا يحدث ؟ فلم تجب . كانت تقود السيارة الصغيرة ، تدفعها خطوة خطوة ، تنقل السرعة وتفتح وتغلق وترفع قدمها وتضغط ، وساقاها ، تحت الجيب المرفوعة قليلا عن ركبتيها ، على الدواسة السوداء المتربة

المنزوعة قليلا عن ارضية السيارة وعليها بقـــايا علبة كبريت وورقة سلوفان مطبقة وممزقة ورماد سجـاير وشريط قماش ناصل لا لون له ، ساقها التي الى جانبه قصيرة سمانتها ملفوفه محكمة ، والساق الاخرى تبدو له باطن ركبتها ، تحت الكولان الشفاف الفيراني اللون ، أكثر بياضا بانعكاس نور خلفـــي متقطر من نافـــذة السيارة ، ساقاها عمودان قصيران مكتنزان في مبنـى سري منخفض السقف ، لهما مع ذلك نعومة خاصـــة ليست من صدع النحات بل من مس أيدي أجيال مـن المتعبدين . كانت في السيارة تلك الرائحة مـن البنزين المحترق واللبن المحترق والتوتر .

قالت له : ميخائيل ، تفتح الزجاج قليلا ؟ ضجيج المدينة يتدفق دفعة واحدة مختلط النبرات والطبقـات والايقاعات ، كالمعتاد أم لعله أكثر قليلا ؟ وعندما وصلا الى ما قبيل الاسعاف ازداد حجـــم الضجة فجأة ، واقبلت تجري نحوها ، كأنما تهـاجم مقدمة السيـارة ثم تنحرف ، مجموعة متفرقة من الصبيـــة بجلابيب وبيجامات وبنطلونات مفكوكة تتـواثب بين السيـارات المتلاصقة الزاحفة وتتفادى عجـلات « الترولي باس » الذي رفع كتلة جسمه الضخم ثم توقف مـائلا يسـد نصف الشارع . ثم اندفعت اليهما سيارات تأتي مـن منطقة فراغ غريبة غير معتادة في المرور ، تلفّ وتدور بسرعة في الاتجاه العكسي وتكاد تصطدم بالزحف البطيء السيل المرور المنتظم ، وفرقعات حادة من غير بعيـد ، وصرخات رجال تبدو ضعيفة في الضجيج الميكـانيكي المختلط الاصوات ، مظاهرة بعد الاسعاف . ارجع .. ارجعي يا مدام .. مظاهرة .. العساكر تضرب الرصاص. وأيد تشور وتلوح وتختفي . اثنان من أمناء الشرطـة يجريان بصمت وانعزال ، كأنهما في تمريـن رياضي ، ناحية الاصوات ، ارتطام زجاج ينفجر ويتطاير وهتافات غير واضحة المعـالم ، وفي لمح البصر ، وبسرعة غير معتادة وخارقة ، كانت سيارتها ترجع الى الوراء فـي حيز ضيق لا يصدق ومستحيل ، وتدور وتمرق مـن بين سيارات تندفع في كل اتجاه ، متعاكسة ومتوازية ومتقاطعة ، عـــلى السواء ، بين أنين الفرامل وعويل الابواق ، الى شارع جانبي مترب ضيق الفتحة يتسع أمامها ويدور بين الدكاكين والمقاهي المفتوحة ، والناس تشرب الجوزة على الرصيف ، والتراب فيه بقع مـن مياه راكدة قديمة ، والابواب الخشبية الضيقة عليهـا طبقات جلدية الشكل من التراب القديم ، والشرفـات الحديدية المدورة المائلة التي تكاد تتلاصق ، عليها غسيل منشور في الظلام ، من أمام الكراكيب المألـوفة علب كرتون وصفائح وأخشاب ونفايات البيوت التي لا يهون الخلاص منها ، تتخايل فوق برك النـــور من مصابيح الشوارع ، عربات النقل الهائلة القديمـة تزحف ببطء طالعة من شارع جانبي تكاد تطبق عليها حيطانه ، وأمام دكان ميكانيكي أرضيته من التراب عليها عدة ومفاتيـح وعجلات تقف سيارة مفتوحة الاحشاء تمتد من تحتها ، ولا تـــكاد تتبين من تراب الطريق ، ساقان نحيلتـان سوداوان لصبي الميكانيكي ، وجهه مدفون في أسفـل السياره ، وهي تحيد عنهما بسرعة وتتفادى سيـارة النقل الوحشيه التي تغلق عليها الشارع ، واذا همـا بعيدان عن دفء الزحـام والضجيج الودود وأنـوار البقالين والميكانيكية ومحلات المانيفاتورة وعربات الخضار، واذا هو يشم رائحة مياه النيل في العتمـة الفسيحة . واعمده من الخرسانة نصف مبنيـــة تنبت لها فروع شائكة مدببة من أسياخ الحـديد المتلوي ، وأكـوام مصفوفة من الخشب تعلو باهتة عارية العظام ، وقضبان المترو المهجورة تلمع مبلولة في مستنقعات مملوءة بالزلط وبقايا متصلبة من الاسمنت الداكن ، وبنـاء التليفزيون الغامض يبدو شاهقا ، من زاوية غير مألوفـــة ، غير بعيد . سماء ليل الشتاء مشتعلة بوهج غريب ، فيـه غيـوم حمراء مصفرة من انعكاس مصابيـح الصوديـوم وايحاء احتراق . وقد اختلطت عليه الاتجاهات ووقـع في سحر هذا الخراب المفاجيء الذي يجري فيـه بنـاء غير مفهوم ومتروك لا يدري أين موقعـــه . وتوقفت قليلا ، مأخوذة هي أيضا ، وغامضة ، ووجهها في العتمة يضيء بنور مكتوم . قال : نرجع للزمالك ، من هنـا ، كوبري أبو العـــلا قريب . قـــالت : لا . قال : مصر الجديدة اذن ، على طول ، من على كورنيش النيـل ، ثم شبرا . لا أظن ان هناك شيئا في هذا الطريق .

النافذة أيضا جرح في الحائط الاصم ، لا يندمل. ومن وراء الجراح تضرب دماء المدينة وتتقلب ، بينما هو منفي في الداخل . أوتـــار مقطوعة بين الجراح فـــي نفسه وهذه النافذة . لا شيء يصـــل بينهما . حائط أبيض مصمت ، عليه نور الصباح ، ملاءة ساطعة حـارة مشدودة كأنها على سرير موت أو رخامـــة تشريح .. الجسم الخصيب الحي ، الجسم الواحد المتعدد بالآلاف، متضخم مكظوظ ممتلىء بالاكل السحت غليظ جـاف هنا ، وهنا خاسف منحوف ، عظامه صفراء مكشوفـة مرمية على تراب الجوع والصمت ، يمور ويندفع فـي شرايين القاهرة القديمة الشهيدة الملوثة الصابرة الفاجرة البذيئة الصاخبة المتبرجة القاتمـــة الوجه المكتومـة الانفاس بعينيها المحترقتين أبدا ، يتمدد وينشج ويتشنج ويتهدل ويتورم وينفجر وتتفكك عراه ، يشتعل فجـأة ويصرخ . السيارات تدور بسرعة وصمت.. « ممنوع.. ارجع .. ارجع .. خذ طريق صلاح سالم . من هنـا ممنوع » . أحجار متناثرة وقطع طوب مكسورة في وسط الاسفلت وبلورات الزجاج العتيقة تلمع شظاياها الدقيقة حادة الاطراف مبشورة على السواد ، واعلانات معووجة مقلوبة مبتورة ، وأعمدة النور مائلة أظلمت رؤوسهـــا المفتوحة المشعة والاسلاك .

في الصباح كانت الاجسام الفتية تتلاصق ببعضها البعض ملهمة بحماسة طفلية وبراءة . وقد لفّوا حول أنفسهم حبلا يجمعهم ويحددهم في اندفاع التمرد المنظم المحكوم بآمال غامضة وهتافات مبحوحة قديمة . الاذرع الممدودة المرفوعة سيقان نبات غض تهتز بها رياح الشباب . والفلاحة التي ما زالت ترتدي ملابس القرية الطويلة ، طرحتها الرقيقة النسيج تلف رأسها المعتز الرفيع العنق ، وجلابيتها السوداء ذات السفرة العريضة فيها شق جانبي طويلٌ يكشف عن قميص داخلي خشن باهت الزرقة من كثرة الغسيل ، تسير وحدها بلا اهتمام ، تدعو الله بصوت مرتفع أن يحفظهم لشبابهم وينجيهم من كل رديء ، وهي ماضية في طريقها مشغولة بهمومها كأنها على شط الترعة في البلد .

وفي آخر الليل كانت الشوارع صامتة ، انحسرت عنها الضجة وانقطعت عنها السيارات المندافعة المرتجفة في طنينها الميكانيكي الخشن . تفحّ بفازات عادمها الحانقة ، وقد ظهرت كأنما لاول مرة الاشجار تحت الانوار الكهربائية التي لم تنكسر . ضخمة مورقة لها حياتها الليلية الكثيفة ، والبيوت قد صمتت وأقفلت على أهلها الخائفين قليلا وراء البيبان الموصدة . تتخايل من خلف خصاص نوافذها انوار واهنة .

من عبر النيل الحاضر ابدا في العتمة غير مرئي وغير مسموع خيل اليه انه يسمع ارتطامات مياه أخرى طال بها الحبس ، هدير الجماهير أمواج متلاحقة بعيدة في هدأة الليل . يأتي من الشط الآخر ، يعلو ويهبط في ايقاع يلقي الروع في قلبه ، لا يميز على البعد ما يهدر به ليل الجماهير ، ما ينفحه البركان المكتوم في نفثات مليئة حاشدة مترددة باصرار ، الصوت العميق الاجش من مئات الحناجر يهدد الليل والسماء وحيطان البيوت المسدودة ، وله صدى مرهوب محبوب تغرورق له على رغمه عيناه ويعود به الحال الى امجاد شباب منقض واحباطاته الراقدة في آخر طبقات قلبه الموحلة بالالم والندم .

جرانيت الجسم الشامخ شباب يتحدى ، في أول الظهر ، الذبول والموت ، لا عورة فيه ، يبتسم ابتسامته الغامضة الدائمة . قوي أمام الآلهة لانه منها ، منزوع من بين أعمدته العملاقة النائية في صعيده الحار ، من بين عتمة الشموع ورهبة السكون في زمانه السحيق ، لكي يقوم ، بكبرياء لا ينال منها شيء ، في ساحته المزدحمة الرثة الريفية الشكل بين قواقع طويلة مغبرة من القطارات التي تتلوى زاحفة محبوسة بين قضبانها أو تركن الى موت صدىء ، مهجورة . وهو مع ذلك وسط أهله وناسه ، وفوقهم . تدور حوله بلا انقطاع تيارات المرور بأسلاكها وعجلاتها وصريرها كأنها لعبة سخيفه وغائبة في مستوى الحضيض ، وتنطلق صفارات مقطوعه الانفاس وتنطفىء أنوار حمراء وخضراء مبتذلة الالوان في النور المحايد الغامر . الجسم الصخري دائم الشباب ، صولجانه لا ينقضي . أما العالم فينقضي وتبقى ندوب الجروح ندبا فوق ندب يتصلب بها لحم القلب وتنبض الدماء في قشرته بعذاب لا ينتهي .

أجسام رهبانية ممزقة مخذولة جافة لا تعرف نوهج الحيويه الا في سورات خدر الحشيش ولوثات الاجساد النسائيه السريعة الانطفاء ، ولا تنصب عليها المياه . رمال الصحراء القذرة فتات من حبوب الصخور. والقواسة ليست من الجسم ولا من الرمال . في داخل هذا الجسم الذي تثخنه الطعنات ، ولا يموت ، أحزان هؤلاء الرهبان عبر صحراوات الاجيال يقهرون شهواتهم العظيمه ويطاون فتوة أجسامهم بأقدام الروح العنيد ، خشنة مشققه . الاطراف المشوقة الحية محاصرة تتوفز من داخل الجرانيت الوردي الصلب الذي لا يقوى عليه الزمن . وعلى صدورهم صلبان ذات أهلة وأشرعة من الذهب والفضة مشغوله منمنمة كأنها المسارج التي تسبح بحمد الله وتضيء بنور الزيتون في محاريب مطرزه بأسماء العزة من الرخام تنمو وتترعرع كأنها ازهار وأعشاب .

جسم المدينة تنفصل عنه تجمعات حائرة مزعزعة القلب تنتظر وتتطلع في فضول قلق مكتوم الفوران . عيون كابية منتفخة من نوم سيىء تلمع تحت غشاوتها أحلام وتمردات غير مفسرة ، في الوجوه المكدودة الضاوية التي تقابل الشمس الشتوية بهمومها الداخلية. والشمس عين مفتوحة ، غير محرقة ، لا تستجيب . نظريتها ثابتة . والخوذات المعدنية المطفأة اللون تلمع في الشمس ، والصفوف الصفراء المضطربة السيئة الهندام تسقط من عربات الشحن بصدمات مكتومة على أقدام نحيلة مدعومة بجلد الاحذية الفليظ الجديد الذي تفوح رائحته . صرخة أمر واحدة ضئيلة مقطوعة : « ارجع .. ارجع » . عجلات المطاط الضخمة تدور ثم تقف ، عالية في وسامتها السوداء تصميم بهيمي . سحابات بيضاء من انفجارات صغيرة الصوت تنطلق من أمامها التجمعات مشتتة بذعر غير محكوم . حوافر الخيل تغوص في الاسفلت الطري . الصدور العريضة الشامخة تحت الوجوه المسحوبة التي لا تفهم الا هيجان الدماء واضطراب الناس وصمتهم المشحون وصياحهم المتناوب ، عليها قامات متوترة ووحيدة وموحشة فوق الرؤوس المتقاربة والتجمعات التي تجري بألف قدم تدوس الاحجار وتتعثر بالاجسام وتذوب في الحواري الامينة المساندة المحطوبة الارضيات بين أبواب البيوت المفتوحة ابدا لانها بلا اقفال وسلالمها الضيقة المعتمة ، مخابىء امينة لا تطولها الفرقعات القاتلة . اغطية القماش

الغليظ من المشمع الاصفر الباهت القذرة اللون متهدلة على هياكل القضبان الحديدية الرفيعة . خانقة فيها رائحة الخشب وجلد الاحذية وزيت البنادق الزخم ورشات رصاص لها صدى في السكون المفاجيء وحفيف الاقدام الكثيرة التي تجري مسموع في شوارع فرغت تماما من ضجيج المرور اليومي الليلي الذي لا ينقطع ، وعيون مفتوحة لا تفهم ماذا جرى ولن تعرف أبدا ، وأنين وأجراس من بعيد ، والنيران في نور الظهر الشتوي حرارتها ضارية ومبرئة ونورها في لون عباد الشمس غير مرئي ، لها فحيح ممتلىء الحلق بثأر لا تسوية له ، بنذر لا وفاء له ، تلعق المباني الحكومية الصفراءالمصنوعة على الطراز البريطاني القديم بحيطانها الجرداء والقضبان الحديدية المتشابكة المربعات في نوافذها المحطومة الزجاج . الحريق يسري فيحطبالقطن الجاف ويمسك بجذور الحلفاء على الفنوات والمصارف ويندلع في الاجران ويصعد له دخان أسود ثقيل ، وخوار الموت من فحل الجاموس المذبوح ، دماء عنقه العريضة تسيل لا يوقفها شيء بصمت وكثافة داكنة الاحمرار علىالتراب المفتت بحبوبه الناعمة نصف السوداء نصف الصفراء . أعمدة الدخان السوداء سامقة ثابتة حريفة الطعم في الافواه الجافة الريق تتصاعد وتتلوى من بينها ألسنة متطايرة حارة لها وشيش ووهج شرير القصد لا لون لها في الشمس . سقوط الابواب وشروخ الزجاج وانشقاق الجدران والجري بالغنائم الرثة الهزيلة ونداءات لا أحد يسمعها . حوافر الخيل تصطفق على البازلت الاسود بايقاع له أصداء متكررة في الشارع الذي خلا من زحمة السيارات وضجيجها المألوف ، تتكون في الجسم الذي يمور عقد جديدة صلبة عنيدة ما تلبث أن تسيل وتذوب في غيامات الغاز المسيل للدموع ، وأمام الصفوف الرفيعة بدروعها وعصيها وخوذاتها عقد صغيرة أخرى سرعان ما تتكون وتتضخم رويدا وتمتلىء بصيحات كأنها انفجارات مرض موجع قديم ، تدفقات مياه عكرة محبوسة تحت القهر والمعاناة وآلام كل يوم التي لا تغير ولا حل لها ، ونباح الرشاشات المتقطع الصدى الذي يبدو لا أهمية له ويترك أمامه أجساما صغيرة تسقط فجأة كأنها أكوام قليلة الشأن من الحزن والهدوم الفقيرة تنقلها الايدي بسرعة الى الرصيف في انتظار رحمة قد تجيء أو لا تجيء . أعشاب رفيعة القامة تنحني تحت الضربة وتسقط أزهار العشب التي لا تتفتح الا سحابة يوم ثم تنقصف . هل تترك وراءها البذور المتجددة ؟ أزهار النار والمرارة التي سرعان ما تنطفىء .

وكأنما ميخائيل يحس الجراح والشروخ والحروق في جسمه الضئيل المحدود ، في جسمه الآخر الهائل الممدود المدفون بين أمواج الصحراء وبطن الطين الوثير . التنين يتململ من وخزات الوقع الحاد الذي تتركه سنان الطعنات لو انه نهض برأسه المشتعل العينين وفمه الفاغر ذي الالف سن الذي ينفث ألسنة من نار . لو انه ارتفع بظهره المكين الوطيد مستندا الى الذيل الشاسع الاطراف المدجج بالحراشف المفتول العضل لاهتزت أعمدة السماء وتزلزل العالم السفلي الراسخ الذي ترتكز عليه الارض السوداء .

هناك . بين هذه الاجسام التي تستمد من تقاربها دفئا والهاما ينسكب ويفيض عن ضيق مجرى حياتها الرتيب المزدحم . هناك ، بين هذه الاجسام التيتجمعت وتتجمع وسوف تتجمع أبدا في دفعات متراصة لا نهاية لها تهتف بصوت ليس هو مجرد تجميع أصواتها بل يأتي من نطاق آخر ، وتسور بأيد أكثر بكثير من مجرد عدد أيديها ، ترفع الى سمائها فرعونا قديما واحدا متجدد الوجه تفديه بالروح بالدم ، تتشوف خلاصها ، تقدم قربانها صانع المجد مفجر الدماء داعي دعاء السلام ، تجأر أمام أمون كلي القوة كلي العزة مانح الخبز والحب والمغفرة من الذنوب . هذه الاجسام التي تشق طريقها نحو الحرية ، نحو الشمس ذات الاصابع الرحيمة القادرة وتعرف بغموض ولكن بتأكيد ان شمسها في داخل قلبها المكنون ، هناك ، معهم ، مكانه وحريته . هناك معهم عرف هذه النشوة ، هذه الخمر التي ليست منالارض . وهي منها ، هذه الحرارة تتدفق في دمائه كأنها البعث من الموات . هناك لم يدرك ان صوته قد بح تماما وان هذا الهتاف الذي تهتز له ضلوعه انما هو هتافهم الواحد وانه وحده لا صوت له ، هناك في ٤٦ كانت اليد التي ألفت بالقنبلة بعيدة عنه وهي يده أيضا . وهو لم يسمع صوت الانفجار والسيارة الانكليزية التي تنقلب فجأة ، حدأة مضروبة ، غير بعيد عن التمثال البرونزي الداكن الصارم الوجه ، ويقفز منها عسكريان بالشورت الاصفر المضحك قليلا النازل تحت الركبة . وبأيديهما « التوميغن » قصيرة الفوهة . مشرعة لا تنطلق . ويجريان الى داخل الكشك الخشبي المحاصر قبل أن يلحهما الهدير العميق . أما في صمت الليل الموحش بعد ذلك ، فقد كان لطلقات الرصاص أصداء متضخمة لها رنين أجوف غائر الصدر . هذه الاجسام التي تسقط تحت العجلات منضربات غير مرئية لا يعرف أحد منأين تجيء كأنها فجأة أجسام الرهبانالصحراوية. ذاوية وضامرة ، مهدرة ، مخذولة ، منسية ليست لها الجنة ، متى يأتي الملكوت ؟ من غير مجد ، مرمية على الحصى والرمال تحوم فوقها الحدأ قليلا ثم تنقض فجأة من قلب السماء البيضاء المحترقة .

نعم أحبك . ولكن في حبي أيضا خيانة محتومة .

قال لنفسه : هذا الاحتراق الداخلي لا معنى له ، في الحقيقة ، هذا الصمت أيضا خيانة . أنت ، وحدك ، لا صوت لك ، نعم ، أحبك ، وفي ثورة هذا الحب ، هذا الصمت ، نواة الخيانة المحتومة . ليس

شيء محتوم . الجرائم تنسى وتنقضي ، ولعلها تغتفر . تمضي على أي حال ولا يبقى لها أثر . وحتى عظـــام الضحايا والشهداء تتحلل بلا ثأر ولا عدالة وتذوب فى الرمل والتراب الجاف .

لكن أزهار الثائرين تظل مفتوحة المخالب .

كان قد قال لها : نحن لا نكاد نعرف أحدنا الآخر يا رامة . هناك مناطق كاملة في حياتك ، وفي نفسك ، لا أعرف عنها شيئا ، لن أعرفها أبدا . ومع ذلك ، هناك نوع من الالفة خفي وعميق ومستقر كأنه من قبل بداية الزمن ، يغلب كل غربة ، لا يحتاج لمعرفة .

عند عودتهما في أول الصبح وقفت السيارة أمام اشارة المرور والساحة الصغيرة فيها التمثال المسطح : القطة الكبيرة ملساء الجوانب وجهها خاو ممسوح واليد على رأسها كأنها بلا ثقل ، كأنها ليست هناك ، تقعـــي بحركة فيها شبهة بذاءة . عسكري المرور العجوز يقف شبه نائم في ملل ، وأمين الشرطة بخوذته البـلاستيك الشفافة وثيابه الداكنة المحبوكة ، بين السيارات ، يدور برأسه ببطء وتعال . الرجل ينادي على خرقه الصفراء بلا ملل ولا حرارة ولا ايقـاع : « فوط بعشرة ، بعشرة يا فوط » ، وفي يده فوطة نظيفة مفرودة يهزها برتابة، لا ينظر الى أحد .

ومن على الرصيف بجوار عمود النور العالي وبعد الاشجار الكثة الخضراء الغنية ، ترتفع فجأة الى جانبـه هذه الشجرة ، جافة ، عارية ، انحسرت عنها الحياة ، لا تنتظر الربيع ، نصبا مـــن الخشب الداكن بشرايينه السوداء ، تلتف أطرافه على بعضها البعض في تصلب ، كأنها نسيت ، من زمن طويل ، الالم الذي مزقها وعقدها وعوجها وطواها ، صراخها جامد أخرس، تتقلص الاذرع، يطعن السماء بأصابع طويلة مسحوبة رفيعة متلويـــة ، بلا أمل ولا يأس (*) .

القاهرة

(*) فصل من رواية بعنوان « رامة والتنين » تحت النشر .

دار الآداب

تقدم

الطبعة الجديدة من مؤلفات

روجيه غارودي

★

- **ماركسية القرن العشرين** — **ترجمة نزيه الحكيم**
- **منعطف الاشتراكية الكبير** — **ترجمة ذوقان قرقوط**
- **البديـل** — **ترجمة جورج طرابيشي**
- **مشروع الامل**